



الأربعاء 22 يوليو 2020 12:41 م

لقد تناول الإمام **إيلنا** فريضة الحج من نواحي كثيرة سواء النواحي الفقهية أو التعبدية أو وحدة المسلمين، أو نشر دعوة الإخوان وعرضها على جموع الحجاج بعد انتهاء فريضة الحج، ولذا تنوعت كتاباته ومحاضراته حول معنى الحج الحقيقي، وهل هو أداء الفريضة فقط؟ أم هو أشمل وأعم من ذلك؟ وحاولنا الوقوف على بعض المعاني باختصار خاصة أن الإمام **إيلنا** كتب كثير من المقالات وخطب في مؤتمرات كثيرة في الحجاز بعد الانتهاء من مناسك الحج.

إلزامية الأداء

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، وقد حرص **الإخوان المسلمون** على تشجيع المسلمين على أدائه، والاستعداد له في المستقبل إن لم يتيسر للمسلم في الوقت الحاضر، وقد حرص الإمام **إيلنا** على سلك النواحي العملية في التشجيع على أداء هذه الفريضة حيث شكل لجنة تحت مسمى لجنة الحج، والتي وضعت أطر وقوانين ومعايير لآلية الحج وتوفير النفقات لدى الأخ داخل الجماعة، بل وضعت محاذير لمن يتخلف عن الادخار لأداء هذه الفريضة.

وقد وضعت الجماعة لائحة تنظيم حج **الإخوان** في مؤتمر الشورى الثالث عام 1935م، وكان الجانب العملي هو أساس التشجيع، فما أن فرغت اللجنة حتى أعلن الأستاذ **إيلنا** عن نيته للسفر لأداء فريضة الحج سنة 1354هـ / 1936م فلبى دعوته على الفور مائة من **الإخوان المسلمين** كان منهم ثماني عشرة امرأة.

وفي ذلك يقول الأستاذ **إيلنا**:

والحج فيه أسمى معاني الجهاد وأدق تدريب عليه، فهو احتمال مشاق الأسفار ووعورة الطرق، والمران على السير في البر والبحر، وأروع ما ترى الكتيبة الإسلامية في الأرض المقدسة كهيئة المجاهدين يوم تراها تلقى الجمرات فترجم عدوها العتيد، وتكبر ربهما المجيد في نظام محكم فريد... (1)

م يؤكد الشعور الرباني الذي ينتاب الشخص الذي ينوي السفر لبيت الله الحرام، فيصف هذا الشعور بقوله:

شعور شائع: منذ عزمتم على زيارة الأرض المقدسة كان يشيع في نفسي شعور غريب قوى فعال يهز روعي هزًّا قويًّا، ويتأثر به قلبي تأثرًا غريبًا، ومن العواطف القوية ما لا يعرف لونه؛ فهو مزيج من الأمل، ومن الإشفاق، ومن الخوف، ومن الرجاء، ومن الحب، ومن الوله، ومن الشوق، ومن الحنين، وكذلك كان شعوري كلما تذكرت عزمي على زيارة الأرض المقدسة.

وكثيرًا ما تكون تلك العواطف المركبة أبعث وأعمق غورًا مما يظن الناس؛ فلقد كنت أجلس إلى نفسي فأتمثل لها مكة ومقدساتها، وطيبة وأنوارها، وأصعد بها إلى الماضي البعيد؛ فتستعرض قريبًا وآثارها والدعوة الأولى وأسرارها، ثم تستمر سائرة مع تاريخ [الإسلام] الحى القوى، فإذا ساعات عظيمة وانتصارات تسمو على البشرية، وتتعالى على التاريخ نفسه، وتتحدى الأرض ومن فيها، وإذا ساعات من الضعف تثير الشجون وتستدر العيون... (2)

ويضيف قوله:

ولكنى أقول لك: إن أهم ما حدا بي إلى زيارة هذه البقعة المباركة غير ما يحدهو بكثير من الناس؛ فإن أعظم ما يسير بالناس إلى هذه البقاع المطهرة الرغبة الملحة فى أداء الفريضة والزيارة المباركة رجاء الثواب أو خوفًا من التبعة يوم القيامة، أو الرغبة الملحة فى التمتع بما أفاضه الله على هذه الديار وساكنيها من بركة وخير، وذلك جميل حقًا، وذلك بعض ما حدا بي إلى الرحلة.

م يؤكد أن الحسرة والندامة على الناس لو تركوا وتخلوا عن أداء هذه الشعيرة وأهملوا حيث يقول: وبوثيك أن يهمل الناس أمر الحج؛ فيرفق الله بيته، ويستأثر به، وينزع البركة السابعة من أهل الأرض الذين أغفلوا نداء ربهم، وأهملوا فريضة حجهم، وهجروا سيدهم.

عن ذلك تعلم تأكد فريضة الحج وعظيم ثواب الله لمن أداها، وشديد العقوبة لمن تركها وتكاسل عن أداها.

لهذا أجمعت الأمة على فرضية الحج على القادر المستطيع، ثم ذهب أبو حنيفة ومالك وأحمد وبعض أصحاب الشافعي، ومن أهل البيت زيد بن علي والهادي والمؤيد بالله والناصر إلى أنه واجب على الفور؛ فمن استطاع لزمه الأداء لوقته... (3)

وبناشد ويحمن إخوانه قائلاً: أيها الأخ الكريم، إن كنت ممن سمعوا هذا النداء فأجابوا الدعاء، وقدر لهم أن يكونوا في وفد الله -تبارك وتعالى- فاعلم أنها غرة السعادة، وفاتحة الخير كله، وعنوان رضوان الله، فما دعاك إلا وهو بحبك، وما ناداك إلا ليمنحك، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، والله واسع عليم؛ فهتئ نفسك بهذا الفضل المبين، وتقبل منا تهنئة الإخوان المحبين، وسترى في هذه الكلمات صورة موجزة من السنة المطهرة في أداء الفريضة، فاذكرنا بصالح الدعوات في تلك الأوقات الكريمة والأماكن المشرفة، وإن حالت دون ذلك الحوائل فصاحب الحجاج بقلبك، ورافقهم في أداء المناسك بروحك، فإن لك مثل ثوابهم إن شاء الله، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد القائل لأصحابه ما معناه: إن بالمدينة أقوامًا ما سرتهم مسيرًا، ولا قطعتم وادبًا إلا كانوا معكم، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: حبسهم العذر... (4)

موعد على عرفات

بقول عن عرفات واجتماعاته: كنت أتحدث إلى صديق عن العالمية الإسلامية؛ فكان من قولي له: إن الإسلام يدعو إلى العالمية بأسمى وأجل مما يدعو إليها الفلاسفة والساسة؛ إذ إنه يلزم كل مسلم أن يعمل ليعم الناس مبدأ واحد هو الحب والإخاء والعدل والمساواة تحت ظل القرآن الكريم لا تعصبًا لجنس ولا تحيزًا لشخص أو فئة.

فكان هذا القول غريبًا أمامه مستبعدًا لديه، وبدت على وجهه علائم الدهشة والاستغراب، وأخذ يتساءل في شك: وهل ذلك ممكن؟ وهل حقيقةً يأمر الإسلام بهذا ويقرره؟.

فقلت له: يا صديقي إنك -بحمد الله- مسلم، وقد وجهت إلَّيَّ سؤالين: هل يدعو الإسلام إلى عالمية المبادئ السامية؟ وهل ذلك ممكن؟ فلنتفاهم فيهما واحدًا واحدًا.

فأما أن الإسلام يأمر بهذا ويدعو إليه؛ فأمر بدهى معلوم من الدين بالضرورة؛ إذ إن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم عامة للبشر جميعًا، والله -تبارك وتعالى- يقول: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)** [سبأ: 28]، والقرآن الكريم -وهو دستور الإسلام الذي لم يترك من أصوله صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها- مملوء بالآيات الواضحة البينة التي تأمر المسلمين بتعميم الدعوة في آفاق الأرض؛ حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله، وما كنت أبظن أن مسلماً يجهل ذلك وهو من أصول الإسلام وقواعده.

ثم يضيف: في يوم عرفة يجتمع الحجاج في وقت واحد وفي مكان واحد وفي زى واحد، وترتفع أصواتهم بدعاء واحد على قلب رجل واحد، ومن أولئك الحجاج يا صاحبي: المصري والهندي والشامي واليمنى والعراقي والحجازي والشرقي والغربي، والمسلم الإنكليزي والفرنسي، وكل شعب من شعوب العالم وصلته دعوة الإسلام، وترددت في أجوائه كلمة الإسلام.

با أروع الموقف، وما أجل المغزى الذي قصد إليه فيه الإسلام وهو دين التوحيد، وما أجزل ثواب الله ورحمته وأعم فيضه ورضوانه الذي يتغشى عباده الأكرمين؛ فيعودون من موقفهم أظهارًا أبرارًا أتقياء أنقياء كيوم ولدتهم أمهاتهم... (5)

مناسك وعبادات

يصف الإمام البيهقي بأنه دين على العبد أمام الله لا بد إن توفرت له السبل من سداد هذا الدين فيقول:

قال الله تعالى: **"وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ"** [آل عمران: 97].

هذا تركيب يدل على عظيم العناية بالحج وتأكد فرضيته، ألسنت ترى أن الحق -تبارك وتعالى- اعتبره دينًا له على عباده في قوله **"وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ"** وألسنت ترى أنه -تبارك وتعالى- جعل مقابل القعود عن أدائه الكفر، وهو أشد المقات، فقال تعالى: **"وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ"** ولم يعهد هذا التركيب في فريضة أخرى في كتاب الله غير الحج تنبيهاً على عظيم قدره وجليل أهميته.

ويوضح المعاني الجليلة من قوله تعالى: "وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ" [البقرة: 196] فيقول:

والمعنى أكملوا الحج والعمرة خالصين لله، وأنتم ممتثلين لأوامر الله مجيبين دعوة الله، ولعلك لاحظت هنا أيضًا في هذه الآية أنه -تبارك وتعالى- جعل الحج والعمرة ملكًا له تأكيدًا للمعنى الأول، وتنبيهاً على مزيد العناية بهذين العملين الجليلين.

ثم يضيف:

ومعنى المتابعة بين الحج والعمرة: تكررهما مرات لمن يستطيع ذلك حرصًا على هذه المزية -مزية التطهير من الذنوب والآثام- أو المتابعة بينهما بمعنى الجمع بينهما؛ فيحج ثم يعتمر مرة أو مرات؛ فتحصل له هذه الفضيلة، كل ذلك مندرج تحت هذا اللفظ الجامع، ومن استكثر من الخير استكثر من ثوابه... (6)

ولم يقتصر فكر الإمام البيهقي على الحج على كونه أداءً للشعير الربانية فحسب، لكن اعتبر له منافع عدة للتعرف على إخوة مختلفين في أنحاء العالم، وأيضًا التوحد على كلمة سواء أمام المخاطر فيقول في مؤتمر الشباب العربي السعودي الذي عقد له وإخوانه بعد أداء مناسك الحج:

فإننا نعتبر من تمام مناسكنا أن نقف على مثل هذا الحفل المبارك فننتعرف إلى إخواننا ويتعرفون إلينا، وشتان ما بين موقف هوى في الله والإسلام وموقف هوى خرقاء واضعة اللثام والله خير وأبقى، وذلك ما دعاني إلى أن أدعو نفسي إلى هذا الحفل ثم إلى التكلم إليكم فيه نزولاً على ما أنارتته خطاباتكم البارعة من شجن كامن في النفس وهوى لاصق بالفؤاد.

ثم قال: أيها الشباب العربي الكريم: لا تستصغروا أنفسكم، ولا تحقروا مهمتكم، فإنكم أساتذة العالم وأئمة الشعوب، وأمناء الله على هدايته العظمى للبشرية كلها، ولئن تعالت أصوات الغرب من كل جانب: ألمانيا فوق الجميع، وإيطاليا فوق الجميع، وسودي بريطانيا واحكمي، وكانت تلك كلمات اخترعوها لأنفسهم، وابتدعوها يريدون بها التهام الضعفاء والعدوان على الآمنين، فإنكم أنتم يا شباب العروبة والإسلام أحق الناس بهذه النعوت والأوصاف لا بدعة تبتدعونها ولا خدعة تستترون وراءها ولكن حقًا مقدسًا سجله الله لكم في كتابه يوم أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم: **(كُنْتُمْ حَبْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)** [آل عمران: 110] لا لتستبدوا بحقوق الضعفاء ولا لتعتدوا على الآمنين ولكن كما قال الله تعالى: **(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)** [آل عمران: 110] وثقوا يا إخواني أي حينما أخاطب شباب العروبة لا أريد للعروبة ذلك المعنى الضيق المحدود الذي يحصرها في قطر من الأقطار، ولكن أريد ذلك المعنى الفسيح الرحب الذي يضم كل شبر أرض فيه مسلم يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

إن العروبة لفظ إن هتفت به

فالشرق والصاد والإسلام معناه (7)

ثم يقول في مثل هذا الموقف، في مكة المكرمة ومنى المطهرة، في هذا الحرم الآمن الذي أقسم الله به فقال "لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ" [البلد: 1-2] ونزل به الوحي وانبتق منه نور النبوة وأشرق فيه شمس الرسالة، في هذا المؤتمر الجامع الذي جمع خلاصات القلوب المؤمنة من أقطار الأرض، من المغرب الأقصى إلى إندونيسيا، من المحيط الهادي إلى المحيط الهندي.

مشاعر وخواطر كثيرة يرحم بعضها بعضًا. نحن نريد في هذا الاجتماع الحاشد الجامع أن نلخص عواطفنا ومشاعرنا، وأن نعرفها جيدًا ونحفظها، ثم نرسم طريقًا نسير فيه جميعًا لنصل إلى الغاية المرجوة، إن شاء الله. يقول رسول الله (ص): **"العلم علمان؛ علم في القلب فذلك العلم النافع، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم"...** (8)

المراجع

- 1- مجلة الإخوان المسلمون الأسبوعية، العدد (25)، السنة الثانية، 16 رجب 1353هـ / 25 أكتوبر 1934م.
- 2- مجلة الإخوان المسلمون - السنة الرابعة - العدد 6 - ص 14، 15 - 28 صفر 1355هـ / 19 مايو 1936م.
- 3- مجلة الإخوان المسلمون - السنة الثانية - العدد 37 - ص 4 : 7 - 17 ذو القعدة 1353هـ / 21 فبراير 1935م.
- 4- مجلة الإخوان المسلمون - مرجع سابق - العدد 37 - ص 1.
- 5- مجلة الإخوان المسلمون - السنة الأولى - العدد 33 - 6 ذى الحجة 1352هـ / 22 مارس 1934م.
- 6- مجلة الإخوان المسلمون - مرجع سابق - العدد 37.
- 7- جريدة أم القرى - الجمعة 19 ذو الحجة 1354هـ / الموافق 14 مارس 1936م.
- 8- مجلة الإخوان المسلمون - السنة الثالثة - العدد 79 - 10 - 26 ذو الحجة 1364هـ / 1 ديسمبر 1945م.